

التوبة

والرجوع من الضلال إلى الهدى

تأليف

طه عبد الرءوف سعد
من علماء الأزهر الشريف

سامى حسنى عبد العزيز
تخصص لغة عربية وعلوم إسلامية

الناشر
مكتبة العلم الإسلامية
٤ عطفة النشيلى من شارع السيد الدواخلى
أمام جامعة الأزهر - الحسين
ت: ٧٨٦٣٢٨٠ - ٠١٢/٤٧٧٢٩٨٢

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع :
١٣٦٤٩ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى :
I.S.B.N. 977-5442-91-5

الكمبيوتر - أ/ هانى عادل حنفى
موبايل : ٠١٠٥٨٩٤٥١٣



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله خلق الإنسان علمه البيان جعل فيه نوازع الخير ونوازع الشر فإذا غلبت عليه نوازع الخير فهو أفضل من الملائكة كالرسل الكرام وإذا غلبت عليه نوازع الشر فهو أسوأ من الشياطين وما دام الأمر كذلك فقد سن الله تعالى لعباده التوبة لمن أخطأ وأراد أن ينوب إلى الله.

والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد بن عبد الله الذى كان يستغفر الله تعالى كل يوم أكثر من سبعين مرة وهو

الذى غفر الله له تعالى ما تقدم من ذنبه وما تأخر إن كان له ذنب أصلا .

وبعد : فهذا كتاب كل الناس فى حاجة إليه فمن منا من لم يخطئ أو يذنب لكن باب التوبة مفتوح على مصراعيه لمن أراد الرجوع إلى الله امتنع عن الذنب واندم على ما فعلت وأدِّ الحقوق إلى أصحابها واعزم على ألا تعود إلى الذنب مرة أخرى حتى ولو عدت جدد مرة أخرى التوبة ومت عليها يغفر الله لك ما فات ويحفظك مما هو آت .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

المؤلفان



حقيقة التوبة ومعناها

قال ابن القيم عن التوبة : هي الندم على ما سلف من العبد في الماضي، والإقلاع عنه في الحال والعزم أن لا يعاوده في المستقبل فإن كان هناك حق لآدمي فلابد من أدائه أو التحلل منه .

وقال عبد الله بن المبارك : هي الندم والعزم على عدم العودة، ورد المظالم وأداء ما ضيع من فرائض، وأن يعمد إلى جسده الذي رباه بالسحت فيذيبه بالهم والحزن حتى ينبت له لحم طيب، وأن يذيق نفسه ألم الطاعة كما أذاقها لذة المعصية .

وقال الإمام الغزالي : التوبة هي الرجوع عن الطريق المبعد عن الله، والمقرب إلى الشيطان .

التوبة في القرآن الكريم والحض عليها

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾ [التحريم: ٨].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾

[الشورى: ٢٥]

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[النحل: ١١٩]

وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

هذا بالإضافة إلى العديد من الآيات التي لا تحصى ولا تعد والتي تحث المسيئين وتحض المذنبين إلى التوبة والإنابة والندم على ما فات، والاهتداء إلى طريق الإيمان والنور واجتناب طريق الضلال والشيطان.

التوبة في السنة النبوية والحث عليها

- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها». [رواه مسلم].

– وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم »

[رواه أحمد في مسنده]

– وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ، « كفارة الذنب الندامة » [أخرجه أحمد].

– وعن أبي هريره رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد »

[متفق عليه]

– وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني، والله لله أفرج بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرب إليَّ شبرا تقربت إليه ذراعاً؟ ومن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعا، وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلت إليه أهرول»

[رواه مسلم]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحسن فيما بقى غفر له ما مضى أو من أساء فيما بقى أُخذ بما مضى وما بقى» [رواه الطيراني].

التعجيل بالتوبة

التعجيل بالتوبة أمر واجب، إذ وجب المسارعة بالتطهير من الذنوب أولا بأول، فتأخير التوبة والتسويف بها من أعظم الآثار

خطراً على القلب؟ بمعنى أن يقول الرجل العاصي سوف أعود، سوف أتوب ويؤجل توبته يوماً بعد يوم ولذا قيل عن «سوف» إنها جند من جنود إبليس.

ولذلك وجب المسارعة بالتطهير وتصقيل القلب أولاً بأول من الذنوب حتى لا تحدث سواداً في القلب أو زيفا كما جاء في حديث النبي ﷺ:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة فإن نزع واستغفر صقلت، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذاك الران الذي ذكر الله تعالى: ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [رواه النسائي وابن ماجه].

وقال ابن القيم: المبادرة إلى التوبة من

الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة أو قل أن تخطر هذه ببال التائب: بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة.

التوبة ليست قولاً باللسان

قال الشيخ يوسف القرضاوي: فالتوبة ليست مجرد كلام يلوكه اللسان، ولو كانت كذلك ما كان أسهلها.

التوبة أمر أكبر من ذلك وأعمق وأصعب، إن عمل اللسان مطلوب فيها بعد أن تتحقق وتتأكد، ليعترف بالذنب ويسأل الله المغفرة، أما مجرد الاستغفار أو إعلان التوبة باللسان – دون عقد القلب– فهو توبة الكذابين، كما

قال ذو النون المصري. وهو ما قالته السيدة رابعة: إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار! حتى قال بعضهم استغفر الله من قولي: استغفر الله، أي باللسان من غير توبة وندم بالقلب.

أما حقيقة التوبة فهي عمل عقلي وقلبي وبدني، تبدأ بعمل العقل يتبعه عمل القلب، فيثمر عمل البدن، ولذا قال الحسن: هي ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار ألا يعود إلى الذنب. [التوبة إلى الله للشيخ القرضاوي]

صيغة الاستغفار والتوبة من الذنب

– قال رسول الله ﷺ: «اللهم هذا إقبال ليلك، وإدبار نهارك، وأصوات دعاتك فاغفر لي» [رواه أبو داود والترمذي].

– قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن تقـــول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت

خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»

[رواه البخاري]

قال الشيخ ابن أبي جمرة: جمع ﷺ في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى سيد الاستغفار، ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية، والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعده به، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعمة إلى موجدها، وإضافة الذنب إلى نفسه، ورغبته في المغفرة، واعترافه بأن لا يقدر أحد على ذلك إلا هو. انتهى.

وأخيراً فلك أن تلجأ إلى الله وتتوب إليه

وتستغفره بأي صيغة أردت، فما بدر في لسانك مقبول عند الله إن شاء الله طالما صدقه قلبك وتفهمه عقلك ورضخت له جوارحك.

صـــلاة التوبـــة

شروط التوبة هي عبارة عن ركعتين من غير الفريضة واللجوء إلى الله بالاستغفار، والندم والحسرة بقلب خالص حاضر على ما بدر من ذنوب، وارتكاب للمعاصي.

عن أبي بكر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي [أي ركعتين] ثم يستغفر الله إلا غفر له، ثم قرأ هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

[آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦].

[رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه]

شروط التوبة

قال النووي رحمه الله: «قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط :-

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً.

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته.

وإذا كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه..» انتهى.

وقال الشيخ القرضاوي: للاستغفار المقبول عند الله شروط لابد منها، وآداب مكملة لها:

١- صحة النية، والإخلاص لله تعالى، فإن الله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه؟ كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ﴾ [البينة: ٥]

وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى» [متفق عليه].

٢- أن يواطئ القلب اللسان على الاستغفار، فلا يقول بلسانه: أستغفر الله،

وقلبه مصرٌّ على المعصية، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه!

٣- ومن الآداب المكملة: أن يكون على طهارة، حتى يكون في أكمل أحواله ظاهراً وباطناً، كما في حديث علي بن أبي طالب، قال: حدثني أبو بكر الصديق رضي الله عنهما - وصدق أبو بكر: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من رجل يذنب ذنباً، ثم يقوم فيتطهر فيحسن الطهور، ثم يستغفر الله عز وجل، إلا غفر له، ثم تلا: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾» [آل عمران: ١٣٥]

وفي حديث أبي بكر مرفوعاً: «ما أصرَّ من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة» [أخرجه أبو داود والترمذي]

علامات التوبة المقبولة

قال ابن القيم رحمه الله: فالتوبة الصحيحة المقبولة لها علامات منها:

١- أن يكون العبد بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

٢- ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين فخوفه مستمر إلى أن يسمع عند قبض روحه: ﴿**أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [فصلت: ٣٠]. فهناك يزول الخوف.

٣- انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفاً.

وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿**لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ**﴾ [التوبة: ١١٠]

قال تقطعها بالتوبة، ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطعه، وهذا حقيقة التوبة، لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفاً من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفاً تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين، وعقاب العاصين، فلا بد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

٤- ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً:

كسرة خاصة تحصل في القلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً، لم يجد منه بدا، ولا عنه غناء، ولا منه مهرباً، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه! وما أعظم جبره بها! وما أقربه بها من سيده: فليس شيء أحب إلى سيده

من هذه الكســرة، والخــضــوع والتــذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له،فلله ما أحلى قوله في هذه الحالة: أسألك بعـزك وذلتي إلا رحـمـتني، أسألك بقـوتك وضـعـفي، وبغناك عني وفـقـري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذَلَّ لك قلبه.

يا من ألوذ به فيما أؤمِّله
ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجْبُر الناسُ عظما أنت كاسره
ولا يهيضون عظماً أنت جابره



هذه بعض آثار التوبة المقبولة الخالصة، فمن لم يستشعر مثل ذلك في قلبه فتوبته ناقصة فليرجع إلى تصحيحها.

فائدة: قال أبو الجلد:

أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك: ما لكم تسترون الذنوب من خلقي، وتظهرونها لي، إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم فلم تجعلوني أهون الناظرين إليكم.

الآفات المانعة للتوبة

١ - الاستهانة بالذنب والإقلال من شأن المعصية:-

الاستهانة بالذنب هي من أعظم الأسباب وأشدها خطراً على المرء لأنها تؤخر التوبة، وتقسي القلب، وتستدرج المرء إلى ارتكاب ما هو أكبر وأعظم، وقد نبه النبي ﷺ إلى

عظمة الاستهانة بالذنب، وحذرنا من محقرات الذنوب فقال: «إياكم ومحقَّرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا واديًا، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه» [رواه أحمد والطبراني].

– وقال ﷺ: «المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا وهكذا».

– وقد ذكرت عائشة مرة إحدى ضرائرها، فأشارت إلى أنها قصيرة القامة! فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»

[رواه أبو داود والترمذي]

- ومـرض بعض الصـالحين من السلف، فعاده بعض أصحابه فوجدوه يبكي بمرارة وحرقة، فعجبوا لذلك، وسألوه: ما هذا البكاء، ولم نرك في حياتك قد اقترفت كبيرة، أو قصرت في فريضة، أو ضيعت حقاً، فكان جوابه: والله ما أبكي على فريضة تركتها ولا حرمة انتهكتها، ولا حق ضيعته، ولكن أبكي، لأني أخشى أن أكون قد أتيت ذنباً أحسبه هينا وهو عند الله عظيم.

٢- طول الأمل: طول الأمل من ثاني الأسباب المؤخرة للتوبة لاعتقاد المرء بطول العمر وبُعد الموت، وأن الوقت مازال مبكراً للإنابة والرجوع، والالتزام بأمور الدين، فيظل يمني نفسه بطول العيش وسعة الوقت، وبُعد شبح الموت، فيمني ويؤخر، ويمني ويؤخر حتى يأتيه الموت فجأة فعندها لا يلوم إلا نفسه ولا ينفع الندم، فيجد نفسه خالياً

مفلساً من أمور الخير، مكتظاً بالمعاصي ومحقرات الذنوب فتهوى به في نار الخلد، فوجب عليك أيها الأخ المسلم أن تعيش في الدنيا كأنك غريب، وأنك لابد راحل عنها، فهي دار ممر لا دار مقر.

قال رسول الله ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك من أهل القبور».

وكان ابن عمر يقول: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك». [رواه البخاري].

ومن رجزهم المنشود في عهد الصحابة:

كل امرئ مصبح في أهله
والموت أدنى من راك نعله!

ومن أشعار الصالحين:

تزود من التقوى فإنك لا تدري
إذا جن ليل: هل تعيش إلى الفجر؟
فكم من سليم مات من غير علة
وكم من سقيم عاش حينًا من الدهر!
وكم من فتى يمسي ويصبح لاهيا
وقد نسجت أكفانه، وهو لا يدري!

وأخيراً قال بلال بن سعد رحمه الله:

لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

٣- الاتكال على عفو الله ورحمته:-

من ثالث الآفات التي تؤخر التوبة الاتكال على سعة رحمة الله وعفوه، كما حكى سبحانه عن حال اليهود فقال تعالى:

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف: ١٦٩]

فالرجاء في رحمة الله يقرنه عمل وسعي دءوب إلى مرضاة الله والتقرب إليه بالنوافل وعمل الخير كالإيمان والجهاد في سبيل الله وأداء الفروض واجتناب ما نهى الله عنه كما جاء في قوله سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٨]

أما الرجاء في رحمة الله دون عمل وكد ومراجعة للأعمال ومراقبة الله تعالى فهي أمنية فارغة واهية لا أصل لها، كما قال علي رضي الله عنه لابنه في وصيته: وإياك والاتكال على المنى، فإنها بضائع النوكى: أي الحمقى.

وقال الشاعر:

ولا تكن عبد المني، فالمني
رؤوس أمـــوال

المفاليس

وكما حكى سبحانه في كتابه العزيز عن أماني اليهود والنصارى فقال: ﴿ **وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢]

– وانظر أخي المسلم قول الشاعر وتأمل:

يا ناظرا يرنو بعيني راقد
ومشاهدا للأمر غير مشاهد!

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي
نيل الجنان ودرك فوز العابد
أنسيـــت أن اللــه أخـــرج آدمـــا
منها إلى الدنيا بذنب واحد

هذا وقد أنكر العلماء والصالحون من ظلم نفسه وفرط في حقه وغفل عن عدوه وسها عن أمـــر ربه، ثم اتكل على عـــفـــوه ورجى رحمة ربه.

ما بـــال قلبـــك تـــرضى أن تدنسه
وثوبك - الدهر- مـغـــســول من الدنس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجري على اليبس

٤- اليأس من رحمة الله وقبول الغفران.

ومن الآفات المانعة للتوبة أيضاً، اليأس من رحمة الله والقنوط من قبول الغفران، فتؤدي بالتالى إلى تأخير التوبة والتسويف بها، إذ

يعتقد المرء بانخراطه في الذنوب وانغماسه في الشهوات وارتكابه للمعاصي كبيرها وصغيرها، أصبح مطرودا من رحمة الله فزاد في خطاياه، وانغمس في لهوه وهواه، وانكب على المعاصي، فقسى قلبه وبطشت جوارحه، مضيعاً للحقوق مرتكباً للمحظورات غير مبال بحق أحد، وفجأة يصحو من غفوته فيجد نفسه مكبلا بكثرة الذنوب، وعظيم خطاياه، فيتساءل محدثاً نفسه: هل يقبل الله توبتي، ويفتح لي بابه، ويدخلني جناته، ويجعلني من زمرة عباده الصالحين؟

فيجيب نفسه نافيا، وبلسان الشيطان ناطقاً، ومن رحمة الله آيساً، ومن عفو الله مبعداً وحائلاً: أيقبلني بعد هذا الشقاء والضياع، فلا أمل ولا رجاء.

هكذا يفكر ويعتقد بعض العصاة والمذنبين مستعظمين ذنوبهم متناسين سعة

رحمة الله وعظم عفوه، وأن باب التوبة مفتوح لا يرد وهو القائل في محكم آياته:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾
[الزمر: ٣٥]

قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير القرآن العظيم (١): هذه الآية دعوة لجميع العصاة من الكفار وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه، عن ابن عباس

(١) انظره من تحقيق الشيخ طه عبد الرءوف سعد.

رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ**..﴾ إلخ.

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ**..﴾ إلخ.

وقال ابن عباس في قوله عز وجل ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ**..﴾ الآية. قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيرا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، وأن الله ثالث ثلاثة،

يقول الله لهؤلاء: ﴿ أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء. من قال ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾. وقال ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ وهو فرعون قال ابن عباس رضي الله عنهما: من أيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وقال علي رضي الله عنه: ألا أنبئكم بالفقيه؟ كل الفقيه؟ من لم يوئس عباد الله من روح الله؟ ولم يؤمنهم من مكره.

وفي الحديث القدسي: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي» [رواه الترمذي].

وقال الحاكم في مستدركه عن جابر أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يقول: ويا ذنوباه

مـرتين أو ثلاثًا، فـقـال له النبي ﷺ: «قل اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، رحمتك أرجى عندي من عملي» فقالها، ثم قال له «عد» فعاد: ثم قال له: «عد» فعاد فقال له: «قم فقد غفر الله لك».

وفي هذا يقول أبو نواس بعد توبته:

يا كبير الذنب عفو الـ
ـله من ذنبك أكبر
أعظم الأشياء في جا
نب عفو الله يصغر

وقال أيضًا:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة
فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن
فمن الذي يرجو ويدعو المجرم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا
وجميل عفوك ثم إني مسلم

٥- الاحتجاج بالقدر: والاحتجاج بالقدر من آفات التوبة وموانعها، إذ يعتقد الجهلاء من الناس أن إتيان الفرد للذنوب لارتكابه للمعاصي إنما هو بقدر من الله، وهو مكتوب عليهم، لا مفر منه ولا مهرب عنه، فغرتهم الأماني وغرهم بالله الغرور، وهو كلام بعيد كل البعد عن الدين وعن منهج النبي الكريم، قريب الصلة بفكر المشركين المحتجين بقدر الله على شركهم ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ١٤٨]

وقال الشيخ القرضاوي في التوبة إلى الله: قد يقبل الاحتجاج بالقدر فيما مضى من العمل؟ وإن كان ألا يفعل ذلك: أعني: ألا يقول: قضى الله عليَّ أن أعصيه – بل يقول ما قاله أبواه، آدم وحواء ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا**

أَنْفُسَنَا ﴾ وما قاله كليم الله موسى، ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ وما قال ذو النون في بطن الحوت: ﴿ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

وفيما ترويه كتب الرقائق: أن رجلاً وقع في معصية: فقام يناجي ربه قائلاً: إلهي أنت قضيت: أنت قدرت، أنت حكمت، فسمع صوتاً يقول له: هذا حق الربوبية، فأين أدب العبودية، فقال: إلهي أنا عصيت، أنا أسرفت، أنا ظلمت - فسمع كأن الله يقول له وأنا غفرت، وأنا رحمت.

فوائد التوبة وثمارها

١- تكفير السيئات ودخول الجنات.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّر

عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [التحريم: ٨]

٢- من فوائد التوبة وثمارها تبديل السيئات حسنات، وهذا ما ذكره سبحانه في كتابه العزيز: ﴿**إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً**﴾ وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتي بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويخبأ عنها كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا، وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: إني لي ذنوباً ما أراها ههنا! قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه».

٣- هزيمة الشيطان والانتصار عليه: إن الدلائل السماوية والآيات القرآنية لتبرهن وتدل على أن الشيطان هو عدو الإنسان اللدود والذي يواصل الليل بالنهار والحيلة بعد الحيلة للإيقاع بالإنسان في براثن المعصية، ودائرة الهلاك، وهذا ما حذرنا منه سبحانه في كتابه العزيز: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [فاطر: ٦].

هذا وقد صور سبحانه جرأة هذا اللعين وجهره بالغواية للإنسان، وإظهار العداوة فقال: ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [الحجر: ٣٩]. وقال: ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ**

لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]

وقال: ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]. وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]

ويروى أيضاً عن هذا اللعين أنه قال لربه: بعزتك لأظلن أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله عز وجل: وبعزتي لأظلن أغفر لهم ما استغفروني.

وهكذا كلما حاول الشيطان الإيقاع بالإنسان فيوقعه في الخطيئة والمعصية وينتصر عليه، فيرجع الإنسان إلى الله ويتوب إليه ويستغفره يقبل الله منه توبته ويبدل سيئاته حسنات ومعاصيه إنعام فيتحسر الشيطان ويهزم ويولي الدبر.

٤- **ذل القلب وإنكساره**. ففي بعض الآثار: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي». فالتوبة تحدث في القلب كسرة وذلا لا يحدثه شيء سواها فكانت سببا في يقظة ضميره، وصحوة قلبه، والإحساس بالخضوع والافتقار إلى الله، وفي هذا يقول ابن عطاء الله السكندرى: «ربما فتح الله لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول، وربما قدر عليك المعصية فكانت سبباً في الوصول، معصية أورثت ذلا لله وانكساراً، خير من طاعة أورثت عجبا واستكباراً».

وقيل لبعض العارفين أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء، فهذا سجود القلب.

٥- محبة الله تعالى: ومن ثمار التوبة وفوائدها أنها تورث في القلب محبة الله وحب الله للتائب كذلك وهو ما ذكره سبحانه في كتابه العزيز: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾
[البقرة: ٢٢٢]

٦- فرحة الله بعبده التائب: كذلك من ثمار التوبة فرحة الله بعبده التائب، وهو ما عبر عنه النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله بأرض فلاة»
[رواه البخاري]

- ومن الآثار والفوائد للتوبة واجتناب

المعاصي ما ذكره ابن القيم رحمه الله في كتابه الفوائد قال :

سبحان الله رب العالمين، لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قواما لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم، والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء

له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم له وحميتهم له إذا أوذى أو ظلم، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت-بل يفرح به لقدومه على ربه، ولقائه له ومصيره إليه - وصغر الدنيا في قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجدان حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكرام الكاتبين له، ودعائهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له، وإقباله عليه وفرحه بتوبته.

فهذا بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا، فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة وبأن لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة، كان الناس في الحر والعرق وهو في ظل العرش، فإذا انصرفوا بين يدي الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. انتهى

الأسباب الباعثة للتوبة

١ - العلم بقدر الله وحقه: فأول هذه الأسباب الباعثة للتوبة العلم بقدر الله وحقه، فحقه سبحانه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد عليه الرزق وعدم العقاب، ومثل هذا ما رواه معاذ بن

جبل أنه كان رديفاً للنبي ﷺ على حمار فقال له: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قال الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً. وحق العباد على الله: ألا يعذبهم».

وقال ﷺ: «لو أن رجلاً يُجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرما في مرضاة الله تعالى، لحقره يوم القيامة».

فإذا ما علم الإنسان قدر الله وعرف مقامه وتذكر عظمته، وعلم أنه مطلع عليه في علانيته ونجواه، وما كمن في صدره وخفى في قلبه، وأنه محاسب على ما اكتسبت يداه ومجزى به رجع إلى الله تائباً، وإليه مستغفراً، وعلى ما بدر منه من ذنب تائباً ولعفوه راجياً كما قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً**

أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]

٢- ذكر الموت: ومن الأسباب الباعثة على التوبة والتعجيل بها ذكر الموت والقبر والقيامة والآخرة، وكفى بالموت واعظا، فمهما طال العمر لابد من دخول القبر، فهو كأس كل الناس شاربه، وحوض كل الناس وارده، لا يمتنع منه نبي ولا غني لا ملك ولا أمير، وقد قال تعالى: ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ** ﴾ [النساء: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ** ﴾ [الجمعة: ٨]. وقال سبحانه: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾ [القصص: ٨٨]

وحكى بعض السلف: أن نوحاً عليه السلام حين جاءه ملك الموت يتوفاه، قال له أيا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ فقال وجدتها كدار لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر.

وقال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هادم اللذات، الموت» [رواه الترمذي].

وقال ابن عمر: أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار: مَنْ أكيس الناس؟ (أعقلهم) وأكرم الناس يا رسول الله؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم استعداداً له، أولئك هم الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا، وكرامة الآخرة»

[أخرجه ابن ماجه]

وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهذون كل يوم، غاديا أو رائحاً إلى الله عز وجل قد قضى نحبه، وانقطع أمله، تضعونه

في صدع من الأرض، قد توسد التراب، وقطع الأسباب، وخلف الأحباب، وواجه الحساب.

وقال أيضاً لبعض العلماء: عظني : فقال: لست أول خليفة يموت. قال: زدني، قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت، وقد جاءت نوبتك! فبكى عمر لذلك.

وكان عمر بن عبد العزيز أيضاً يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وشكت امرأة إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها، فقالت لها، أكثري ذكر الموت يرق قلبك.

ـ وكان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبراً، وكان ينام فيه كل يوم مرات، يستديم بذلك ذكر الموت! وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد.

٣- **ذكر القبر**: ذكر القبر وزيارته من أهم الأسباب الباعثة على التوبة لأنه أول منزلة من منازل الآخرة فإن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر، وهو ما قاله الرسول ﷺ في حديث رواه عثمان بن عفان رضي الله عنه فيما جاء عنه أنه كان إذا وقف على قبر يبكي حتى تبل دموعه لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار، فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي! فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه، فما بعده أشد»، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه».

٤- **ذكر الحشر**: قال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ**

وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾
[فصلت: ١٩ – ٢١]

عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا [غير مختونين] قالت عائشة: فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: الأمر أشد من أن يهمهم ذلك ».

وسمعت ذلك أم سلمة رضي الله عنها فقالت: « يا رسول الله، واسوأتاه أينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: شُغل الناس، قالت: ما شغلهم؟ قال: نشر الصحائف، فيها مثاقيل الذر، ومثاقيل الخردل » [رواه الطبري].

٥- ذكر النار: ذكر النار والخوف منها والتفكير فى شدة حرها وألم عذابها من أهم الأسباب الباعثة للتوبة والتعجيل بها، فإذا أردت أن تراها وتشاهدها، وتعاين أليم عذابها فراجع قول خالقها ومعدها لكل جبار عنيد عاص غير تواب منيب: ﴿**هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ [الحج: ١٩ -٢٢]

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا**

سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء : ٥٦] .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » [رواه مسلم] .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ناركم هذه التي يوقد ابن آدم ، جزء من سبعين جزءا من حر جهنم » قالوا : والله! إن كانت لكافية يا رسول الله! قال : « فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها » .

٦- ذكر الجنة والترغيب فيها :

كذلك ذكر الجنة ونعيمها وما أعد الله لأهلها من النعيم والفوز العظيم والرضا الدائم من الله .

ومن الأسباب المهمة الباعثة للتوبة ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فذكرها والاشتياق لها وتمني المرء أن يكون من أهلها لمن أهم الأمور الباعثة للإنابة والرجوع للتواب الرحيم غافر الذنب وقابل التوب الذي أعد لعباده الصالحين جنة عرضها السموات والأرض ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ

إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُوراً * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيراً * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوراً * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإنسان: ١٢ – ٢٢].

فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ لابن صياد: « ما تربة الجنة؟ » قال: درمكة بيضاء، مسك. يا أبا القاسم.

[رواه مسلم]

وفي رواية « درمكة بيضاء، مسك خالص » [رواه مسلم].

عن أنس عن النبي ﷺ قال: « .. يؤتي بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة. فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم!

هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا. والله! يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط». [رواه مسلم].

وقال رسول الله ﷺ: عن حال أهل الجنة: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة بدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون ولا يتغوطون فيها. آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم من الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقيهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا» [رواه مسلم].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن

تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا» [رواه مسلم].

وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة. طولها ستون ميلا. للمؤمن فيها أهلون. يطوف عليهم المؤمن. فلا يرى بعضهم بعضا»

[رواه الإمامان البخارى ومسلم]

وعن أدنى أهل الجنة منزلة وآخر أهلها دخولاً، يروي ابن مسعود رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال: «آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة. فإذا ما جاوزها التفت إليها. فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة فيقول: أي رب! أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها، وأشرب من مائها. فيقول الله عز وجل: يا بني آدم لعلي

إن أعطيتكها سألتني غيرها. فيقول: لا يا رب! ويعاهده أن لا يسأله غيرها. وربه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها. فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى. فيقول: أي رب! أدنني من هذه الشجرة لأشرب من مائها وأستظل بظلها. لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها. وربه يعذره. لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين. فيقول: أي رب! أدنني من هذه الشجرة لأستظل بظلها، وأشرب من مائها. لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى!

هذه لا أسألك غيرها. وربه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها. فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي ربي! أدخلنيها. فيقول: يا بن آدم! ما يَصْرينى منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلَها معها؟ قال: يا رب أتستهزئ مني وأنت رب العالمين «فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: مما تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: من رب العالمين حين قال: أتستهذئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر».

آثار المعاصي ونكبتها بصاحبها

أما عن آثار المعاصي وشئومها على صاحبها، فقد عددها ابن القيم في كتابه

القيم «الجواب الكافي» حتى أوصلها إلى أكثر من خمسة وأربعين أثراً نذكر بعضاً منها مختصرة نظراً لضيق المقام.

١- حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

٢- وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا يوازنها ولا يقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة.

٣- الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم.

٤- تعسير أموره، فلا يتوجه إلى أمر إلا وجده معلقاً دونه أو متعسراً عليه.

٥- ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره.

٦- ومنها أن المعاصي توهن القلب والبدن.

٧- أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته، ولابد فإن البر كما يزيد في العمر، فالفجور ينقصه.

٨- أن المعاصي تزرع أمثالها، ويولِّد بعضها بعضاً، حتى يعز على العبد مفارقتها، والخروج منها.

٩- أن المعصية تضعف القلب عن إرادته فتقوي فيه إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا.

١٠ - ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه.

١١- ومنها: أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه.

١٢- ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم. وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة [القحط] وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

١٣- أن المعصية تورث الذل ولابد، فإن العز كل العز في طاعة الله.

١٤- أن المعاصي تفسد العقل، فإن للعقل نوراً، والمعصية تطفئ نور العقل ولابد، وإذا أطفئ نوره ضعف ونقص.

١٥- ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين.

١٦- أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ.

١٧- ومنها: حرمان دعوة رسول الله ﷺ

ودعوة الملائكة فإن الله سبحانه أمر نبيه بأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات.

١٨- تحدث في الأرض أنواعا من الفساد في الحياة والهواء والزرع والثمار والمساكن. قال تعالى: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ** ﴾

١٩- ومن عقوباتها: ذهاب الحياء. وعنه ﷺ أنه قال: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

٢٠- ومن عقوباتها أنها تزيل النعيم وتحل النقم.

٢١- ومنها: ما يلقيه الله سبحانه وتعالى من الرعب والخوف في قلب العاصي فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً.

٢٢- ومن عقوباتها: سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه.

٢٣- ومن عقوباتها: أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب فيجد المذنب نفسه مستوحشاً.

٢٤- ومنها: أنها تعمي بصر القلب وتطمس نوره.

٢٥- ومن عقوباتها: ان العاصي دائماً في أسر الشيطان، وسجن شهواته وقيود هواه.

٢٦- ومن عقوباتها: نقصان العقل.

٢٧- ومن عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيئاً لأن يكون من العلية.

٢٨- ومنها: المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾.

تم الكتاب المبارك بعون الله

والصلاة والسلام على رسل الله

الفهــرس